رابح زناتي ومشروع الاندماج: المرجعيات والأسس (1877– 1952م)

د نفيسة دويدة

أستاذة محاضرة أ– المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

ملخص

يعد رابح زناتي أحد أبرز أفراد النخبة الجزائرية "المفرنسة" الأكثر تطرفا واقتناعا بالمهمة "الحضارية" لفرنسا بالجزائر، وذلك بالنظر لأفكاره وأطروحاته المدافعة عن مشروع "الإدماج"، والتي كرس لها حياته على مدى قرابة نصف قرن. وخاض في سبيل ذلك سجالات عنيفة، وشمل مجال نشاطه (بالإضافة إلى التعليم) النشاط السياسي في مختلف الفعاليات والمنابر، وكذا العمل الصحفي الذي خلف فيه تراثا كميا ونوعيا هائلا قلما نجد له مثيلاً آخر بالنسبة للمعاصرين له.

الكلمات الدالة: النخبة الجزائرية، رابح زناتي، الاندماج، التجنيس.

Absract

Rabah Zenati is considered one of the most extremist Algerian personality convinced of the " civilizing " mission of France in Algeria and that in light of its ideas and thesis defending the "assimilation " project for which he dedicated almost half a century of his life. He singled out for that matter records defending his thoughts and ideas. His activities include, besides his teaching, political works in different events and tribunes and his journalistic works that produced a rich materialistic and quantitative material that is rarely seen in his contemporary.

Keywords: Algerian elite, Rabah Zenati, l'intégration, naturalisation.

Résumé

Rabah Zenati peut être considéré comme l'une des personnalités algériennes les plus convaincues par l'idée de la mission civilisatrice de la France coloniale en Algérie. Ses positions très favorables à l'idée d'intégration des indigènes l'ont amené à consacrer 50 années de sa vie à défendre ce projet en luttant vigoureusement contre ses opposants surtout algériens. En dehors de l'enseignement, Rabah Zenati activait dans plusieurs domaines dont la politique et je journalisme. Ses écrits journalistiques représentent un patrimoine quantitativement et qualitativement important par rapport à ce que ses contemporains ont laissé à la postérité.

Mots- clés: L'élite algérienne, Rabah Zenati, l'intégration, naturalisation.

مقدمة

تعتبر شخصية رابح زناتي احد أبرز أوجه النخبة الجزائرية؛ التي تنتمي للتيار الليبرالي الأكثر تطرفًا، وذلك بالنظر لمواقفه وأفكاره السياسية المدافعة عن مسعى ضرورة اندماج المجتمع الجزائري المسلم داخل "الأسرة" الفرنسية المتحضرة. وتميز أيضًا داخل النسيج النخبوي

بالجرأة في الطرح، وعدم المواربة، والتمادي إلى أقصى الحدود الممكنة في التصدي لأية أفكار معادية لأفكاره سواءً من قبل الجزائريين أو من قبل الفرنسيين. وخاض على مدى قرابة النصف قرن؛ سجالات عنيفة في الجرائد والمنابر السياسية والثقافية المختلفة.

وعليه؛ فإن هذه الدراسة تبحث بداية في أبرز ملامح شخصيته؛ من حيث التنشئة والمسار، وعرض تصوراته الفكرية المتعلقة بمشروع الاندماج، وهو الهاجس الذي كرس له كل حياته. ومن ثمة إبراز مرجعيات وفلسفته الاندماجية وأسسها الفكرية.

ولا يمكننا تجاهل مسألة نقص الدراسات البيوغرافية والتحليلية للتراث المكتوب الخاص به؛ إلا ما تداوله البعض من معلومات عامة. ولذا واجهنا صعوبة في الوصول إلى عرض بعض الجوانب في شخصيته؛ لاسيما ما تعلق منها بمحيطه العائلي، وطبيعة علاقاته الإدارية والتربوية؛ خلال فترة ممارسته التعليم في المدن المختلفة، وتحديد ما إذا كان قد قُلِد أوسمة ونياشين تشريفية كبعض زملائه المعلمين... الخ؛ في ظل عدم العثور على كتابات مصدرية من شأنها إجلاء الغموض عن تلك الجوانب الهامة والكفيلة بتحديد منطلقاته الفكرية، وإيجاد مبررات خياراته تلك؛ حتى في ظل فشل مساعي مشروع الاندماج، وتقدم حركة المطالب الوطنية لصالح التيارات الأخرى.

1. التعريف بشخصية رابح زناتي

ولد رابح زناتي سنة 1877م بدوار تاوريرت الحجاج التابع لبلدية فورناسيونال Fort National المختلطة الواقعة بالقبائل الكبرى. تعود أصوله الأسرية كسائر بني جيله المنتمين لنفس المنطقة؛ لعائلة فلاحية بسيطة ومتواضعة في مستواها الاجتماعي؛ لكنها حرصت على متابعة ابنها لدراسته الابتدائية والثانوية بمسقط رأسه، ثم التحاقه بمدرسة المعلمين ببوزريعة سنة 1892م، وتخرجه منها بتفوق (Ihaddaden,1983).

تجنس زناتي، وشرع في ممارسة مهنة التعليم مباشرة بعد تخرجه، حيث تنقل بين عدة مدن جزائرية، ومنها مدينة قسنطينة؛ التي استقر بها ابتداءً من سنة 1903م. جند في الحرب العالمية الأولى في صفوف المجندين الأهالي[1] وبعد تسريحه عاد إلى مهنة التدريس، واستمر على تلك الحال حتى إحالته على التقاعد برتبة مدير لإحدى الابتدائيات سنة 1938م (سعد الله، 1998). توفي في 15 أكتوبر 1952م (Déjeux,1984).

1- لم يتحدث زناتي عن تجربته العسكرية في الحرب العالمية الأولى، وابتعد حسب ما يبدو عن الإشارة إليها في كتاباته؛ فلم نتبين تفاصيل تلك التجربة المهمة.

مارس زناتي الصحافة؛ وساهم في تأسيس مجلة "صوت المستضعفين" "La voix des humbles" سنة 1922م، وتولى إدارتها ابتداءً من سنة 1929م، ثم أسس جريدته "الصوت الأهلي" "La voix indigène" في نفس السنة. خلَف إنتاجًا هائلاً من المقالات؛ فاق الألف مقال في جريدته فقط، إذ كان يكتب أحيانًا بمعدل مقالين في العدد الواحد؛ أحدهما باسمه الحقيقي، والثاني بأسماء مستعارة أشهرها "حسان". وكان صارماً في التسيير الإداري للجريدة، متشدداً في مواقفه؛ حتى أنه كثيراً ما كان يختلف مع مساعديه، ووصل خلافه مع بعضهم إلى درجة القطيعة؛ كما حدث مع صديقه الدكتور محمد الصالح بن جلول مثلا (La voix indigène, no1931 ,107).

أما بخصوص النشاط الجمعوي؛ فإن زناتي انضم مبكرًا لـ "جمعية المعلمين الفرنسيين من ذوي الأصول الأهلية" "Association des instituteurs d'origine indigène d'Algérie" التي تأسست في 24 افريل 1922م، والتي تعتبر مجلة "صوت المستضعفين" لسان حالها. كما شارك في تأسيس "ودادية الموظفين الفرنسيين ذوي الأصول الأهلية" "Amicale des fonctionnaires français d'origines indigènes"؛ حيث شغل فيها منصب نائب المدير سنة 1930م، والتي كان من أعضائها البارزين الدكتور الطيب مرسلي.

وفي المجال السياسي يبدو على الأرجح أنه لم يتبوأ مناصب سياسية هامة؛ لكنه كان حاضرًا في عدة مناسبات وفعاليات؛ نذكر منها على الخصوص مشاركته في الوفد الجزائري الذي قصد باريس سنة 1930م، وقدَم جملة من المطالب للحكومة الفرنسية، والذي ضم أيضًا مندوبين عن فيدرالية المنتخبين للمقاطعات الثلاث: قسنطينة، وهران، الجزائر العاصمة (سعد الله، 1998). وهو من حيث المبدأ لم يختلف كثيرًا عن رفاقه من مجموعة النخبة؛ لكن الفارق الذي ميزه عنهم هو عدم اتصافه بالمرونة، والحنكة السياسية، والأداء الدبلوماسي؛ كالذي تمتع به مثلا بلقاسم بن التهامي أو فرحات عباس وغيرهما، ولذلك أصبح استحضار اسم جريدة "الصوت الأهلي" يعني بالضرورة الإشارة لشخص صاحبها رابح زناتي.

2. آثار رابح زناتي

اهتم رابح زناتي كثيرًا بالكتابة؛ في عدة مجالات سياسية وفكرية واجتماعية وثقافية، وبرزت لديه ميول أدبية أيضًا. وعليه فقد وصلنا من كتبه المنشورة إصداره الأول المعنون بـ: "المشكل الجزائري كما يراه أهلي" "Le problème algérien vu par un indigène"، والذي اعتبر بمثابة "فلسفة العقيدة الاندماجية الجزائرية" (دياكوف، 2009). وكانت مجلة "إفريقيا الفرنسية" "L'Afrique française" قد نشرته بالتسلسل ملحقًا

بأعدادها لسنة 1938م. أما عن محتوى الكتاب فقد تطرق فيه صاحبه لتحليل مختلف أبعاد السياسة الفرنسية بالجزائر، وركز – كما في باقي مؤلفاته – على تقديم الأسلوب الأمثل لتحقيق مسعى "الاندماج"، وحلل معوقات هذا المشروع، ثم أكد على ضرورة تكامل عمل النخبة "المتطورة" بباقي الفئات؛ في حال لحاق هذه الأخيرة بركب الحضارة والتقدم؛ اللذين يندرجان ضمن المهمة الموكلة لفرنسا (Zenati1938).

تم نشر كتابه الثاني سنة 1938م، وضمنه عنوانًا مثيرًا هو "كيف ستنتهي الجزائر الفرنسية؟" "Comment périra l'Algérie française?"، وهو في حقيقة الأمر عبارة عن مجموعة من المقالات المنشورة من قبل والخاصة بالقضية الأهلية. ولم يختلف الكتيب كثيراً في مضمونه عن سابقه (ويمكن اعتباره بمثابة تتمة له)؛ عدا تركيزه على تقديم بعض الحلول والمقترحات الظرفية في هذا الأخير؛ لاسيما أن صاحبه استشعر الخطر الداهم المهدد لمشروع الجزائر الفرنسية (والمتمثل أساسًا في نشاط الإصلاحيين)، والذي يمكنه أن يقبر آماله وطموحاته في تحقيق مشروع الاندماج (Zenati,1938).

في إحدى روايته تحت عنوان: "بو لانوار الشاب الجزائري" "Bou El Anouar le jeune algérien"، والذي شاركه في كتابتها ابنه المحامي المدعو أكلي، وقد صدرت سنة 1945م. واحتوت الرواية؛ في 226 صفحة من الحجم المتوسط تقريبًا؛ نفس الأفكار المطروحة في كل كتاباته السابقة، والتي تمحورت حول محاولة تشريح معادلة التخلف والتقدم للجزائر المسلمة، وهي بالتالي أقرب للدراسة السوسيولوجية؛ التي ترصد الواقع الجزائري المعاش في الأربعينات. وصدرت عن دار الكتب بالجزائر العاصمة. ونالت هذه الرواية حينها الجائزة الأولى للأدب الجزائري، لكنها لم تحظَ بالأهمية التي بلغتها روايات أخرى معاصرة لها كرواية مولود فرعون "نجل الفقير" "Le fils du pauvre" مثلا.

أما في المجال الصحفي؛ فبالإمكان إيجاد مكان مرموق لزناتي وسط الأقلام الصحفية الرائدة آنذاك، وذلك نظرًا لمساهماته؛ على مدار قرابة الثلاثين سنة من العطاء الفكري الصحفي (إدارة وتسييرًا وكتابة) دون انقطاع. لقد أسس رابح زناتي جريدته "المعمرة" بمدينة قسنطينة؛ التي كان قد استقر بها، وهي أسبوعية ناطقة باللغة الفرنسية حملت عنوان: "الصوت الأهلي" "La voix indigène"، ووضعت عبارة: الوحدة الفرنسية الإسلامية للدفاع عن حقوق الأهالي " Journal d'union franco-musulmane et de défense des intérêts indigène" شعارًا لها. وصدر عددها الأول في 13 جوان 1929م. وابتداءً من تاريخ 12 فيفري 1947م تغيَر عنوان الجريدة إلى "الصوت الحر" "La voix libre". واستمرت في الصدور بانتظام؛ حتى وفاته سنة 1952م، وهي تعد بذلك

من أكثر الجرائد الأهلية استمراراً؛ مع الإشارة إلى وأنها أوقفت لفترة قصيرة فقط أثناء الحرب العالمية الثانية في الفترة ما بين أوت 1941م وجوان 1943م؛ برغبة من مديرها.

وعن أهم الأقلام التي كتبت فيها؛ فقد ضمت مقالات ومساهمات لعدة شخصيات من النخبة الجزائرية "المفرنسة" وبعض الشخصيات الفرنسية؛ مثل العقيد حاج قاضي، حموش، جون ميليا، فيكتور سبيلمان، وبعضهم كان ينشر فيها بأسماء مستعارة مثل: وحيد Solitaire، ملاحظ Observateur، بليدار Bledard، إنساني Humain، xxx، أبو الزهراء Abou Ezzohra، وغيرها من الأسماء المستعارة [1].

اهتم زناتي في مقالاته بعرض فلسفته الخاصة عن مشروع الاندماج، وعلى رأسها قضايا التجنس، التقارب الفرنسي– الأهلي، "الإصلاح" الجزائري، الإسلام واللغة، قضايا الأسرة والمجتمع. وتعرض بالتحليل والمناقشة أيضًا لأحداث وقضايا العالم العربي والإسلامي، والشؤون الإنسانية عامة. أي أنه تناول تقريبًا جل المواضيع المزامنة لتلك الفترة، وكانت له رؤى ودراسات استشرافية فيها، مما لفت انتباه الإدارة الاستعمارية حتى أنها اعتمدت عليها في بعض الأحيان، واتخذتها مرجعًا في التعامل مع بعض الملفات (La voix indigène, no1931 ,130 ; no114).

3. تصورات رابح زناتي لمشروع الاندماج

رغم شح وغموض المعلومات الخاصة عن رابح زناتي؛ فإنه يسهل التعرف على أفكاره ومواقفه وطروحاته بخصوص مختلف قضايا عصره، وبالإمكان استقراء توجهاته الفكرية؛ من غير الوقوف طويلا أمام أصول تنشئته الأسرية والاجتماعية، ومؤثرات بيئته الثقافية والمدرسية كما جاء سابقًا.

ويجدر بنا القول أن شخصية زناتي في الفترة الأولى؛ لم تتألق على المستوى السياسي في ظل وجود شخصيات أخرى؛ كانت أكثر حضورًا وتأثيرًا ضمن التيار النخبوي مثل: الأمير خالد، بلقاسم بن التهامي، محمد الصالح بن جلول، فرحات عباس، وغيرهم. لكن علينا ملاحظة أن الجزائر في تلك الفترة أي بعد الحرب العالمية الأولى؛ عرفت انطلاق العديد من التيارات السياسية والاجتماعية، ووقفت على حركية في المجال الثقافي والفكري؛ سمحت بكل ذلك المتغيرات الداخلية والخارجية، وتداعيات الحرب على مستوى الأفراد والمجتمع (ماكسيمنكو، 1984).

1- قمنا بمراجعة أعداد كثيرة من الجريدة، وتمكننا من استخلاص الأسماء المذكورة؛ انطلاقًا من مقالاتها المنشورة. ويمكن العودة إلى تلك الأعداد في المكتبة الوطنية بالحامة (قسم الدوريات والجرائد)، وكذا بمختلف أقسام الأرشيف: الوطني، والولائي بالجزائر العاصمة وبقسنطينة.

لقد بدا رابح زناتي ذو التجربة العريضة في التعليم مختلفًا عن فئة المعلمين الأهالي؛ التي اكتفت أحيانًا بممارسة مهنتها المتواضعة؛ دون الكشف عن أيديولوجيتها، والمشاركة في الإفصاح عنها ولو بعد التقاعد، وهو أمر مفهوم ارتبط أساسًا بـ"الولاء الوظيفي" المفروض على هؤلاء. كما أنه لم يتجه إلى تسجيل تفاصيل تلك التجربة؛ إما في شكلها التعليمي التقني أي الخاص بالمناهج؛ أو من حيث مضامين الدروس والمحتوى البيداغوجي، وذلك مثلاً بإصدار الكتيبات التربوية والتوجيهية المرتبطة بالوظيفة نفسها. كما فعل – على فترات مختلفة – بلقاسم بن سديرة، وعمار بن سعيد بوليفة، ومحمد صوالح وغيرهم (دويدة، 2014).

ومن جهة أخرى بدا حركيًا؛ مندفعًا؛ وغير متحفظ مقارنة بزملائه المعلمين داخل تجمع "صوت المستضعفين" خاصة، والذين رغم نشاطهم في المجلة وخارجها؛ إلا أنهم ظلوا حبيسي املاءات الإدارة الاستعمارية بشأن آليات المشاركة السياسية. وكان أيضًا منفتحًا في تصوراته على التجارب العالمية بخلافهم، ووصف بأنه كان "فقيرًا وفخورًا، يسير عكس التيار"(Déjeux,1984).

وعمومًا اتسمت تصورات زناتي لمشروع الاندماج؛ بالنظرة التفاؤلية في أحيانٍ كثيرة، ولذلك لم يدخر جهدًا في سبيل توضيح منطلقاته الفكرية؛ لتحقيق تلك الغاية. وبرزت ملامح مرجعياته الثقافية؛ ممثلة في الولاء للمدرسة الفرنسية، وتحديد العلاقة بالإسلام. أما الأسس العملية لمشروعه؛ فقد قامت على عدة أبعاد؛ لعل أهمها هو حق الحصول على المواطنة الفرنسية، وإبداء العداء للمناوئين لأفكاره.

1.3 المرجعيات الفكرية والثقافية

من المهم القول أن زناتي قد اعتنق أفكار التيار الليبرالي في بعده الأكثر تطرفًا، وذلك لأنه كان الداعي إلى الإنصهار والذوبان الكلي والحتمي بين الشعبين الجزائري المسلم والأوربي. وكان يرى الجزائر بصورة "المستعمرة المقهورة"؛ لكون سكانها المسلمين لم يصيروا فرنسيين بعد. وهو في ذلك لم يرض سوى بالصورة المطلقة – المتطرفة – للتماهي بين العنصرين على المستويين الإثني والاجتماعي (بيرفيي، 2007). وقد لخص قناعاته بهذا الخصوص في قوله الصريح والواضح "إن طموحنا على المستوى الشخصي؛ حول سياسة الأهالي؛ هو القضاء وبسرعة على كل الفوارق الموجودة، والتي يتخذ منها بعض الأشخاص عائقاً يمنع تكوين شعب فرنسي حقيقة على هذه الأرض الجزائرية"(La voix des humbles, no1928 ,58).

ونلاحظ أنه – كالنخبة الجزائرية المفرنسة إجمالًا– استمد مرجعياته الفكرية والثقافية أساسًا من تكوينه على مقاعد المدرسة الفرنسية بكل مستوياتها. ثم إن مهنة التعليم؛ التي

أُنيطت به وبرفاقه؛ أصلت فيهم نوعًا من الالتزام الوظيفي والروحي تجاه تلاميذهم ومحيطهم، وبالأخص تجاه معلميهم (Letourneau,1962). وهذا تحديدًا ما ولد لديه لاحقًا ولدى آخرين أمثاله إحساسًا بالوفاء، والمشاركة في "رد الجميل"؛ كما عبر عنه الشريف بن حبيلس؛ أمام جهود الإدارة الفرنسية الممتدة طيلة قرن كامل أو يزيد بالجزائر (Benhabilès,1941).

وكان تأثير التكوين الثقافي القائم على تكريس الإيديولوجية الاستعمارية واضحًا على مستوى أداء النخبة المفرنسة في عمومها؛ إلا أن الفوارق بين أفرادها؛ تمثلت في درجة إبداء الولاء والتشبث بالقيم الغربية كاملة، أو مع الحفاظ على الخصوصيات المحلية للمجتمع المسلم (La voix des humbles, no1930 ,83) . ويصنف زناتي ضمن الفئة الأولى؛ التي اقتنعت بجدوى ومثالية شعارات الثورة الفرنسية، ودافعت باستماتة لأجل رؤية الجزائر إحدى المقاطعات الفرنسية المكتملة الحقوق، وقضى حياته كلها بانتظار تحقيق اندماج المجتمع المسلم في ركب المجتمعات الأوربية المتحضرة (دويدة، 2014). وقد كتب في مجلة صوت المستضعفين مثلا؛ بمناسبة ذكرى مئوية الاحتلال 1930م: "إن الاحتفال بالذكرى المئوية؛ يجب أن يكون بالنسبة إلينا عيد 14 جويلية؛ أي انتصارًا للحق والحرية على الاستبداد". وأضاف "أملنا أن تكون المئوية بالنسبة للجميع ميثاقاً للأخوة والتقدم" (La voix des humbles, no1929 ,10[1] La voix indigène, no 1928 ,58).

أما على مستوى العلاقة بالإسلام؛ فلاشك أنه لم يُخفِ لائكيته؛ على غرار بعض زملائه في التيار مثل: فاسي، بلحاج، بن التهامي، وغيرهم. واتسمت نظرته للإسلام بكونه مثل باقي الديانات؛ أي أنه عبارة عن شعائر روحية؛ يجب أن لا تتدخل في الحياة والممارسة اليومية للإنسان، خاصة وأن الكنيسة ظلت –في رأيه – عائقًا يقف في وجه التقدم العلمي والحضاري لأوروبا (La voix indigène, no1929 ,10). وبالتالي فهو لم يمانع؛ في التخلي عن الأحوال الشخصية للمسلمين لتحصيل المواطنة الفرنسية. تلك هي شروط المواطنة التي اقترحها؛ ليتمكّن المجتمع المسلم من الانضمام للدائرة الفرنسية (العلوم الإنسانية، العدد1، 2008). وهذا ما أوضحه منذ سنة 1926 بقوله بأن: "المسألة بالنسبة إلينا ليست محاربة الأديان، ولا مقارنتها وتفضيل أحدها على الآخر؛ بل نعتقد بالعكس أن الإيمان بها بإخلاص يؤدي إلى فهمها، والابتعاد بها عن الرؤى السياسية" (La voix des humbles, no44,1926).

1- عبر "زوالي" مثلا، وهو اسم مستعار لأحد الأقلام النشيطة بمجلة "صوت المستضعفين"؛ عن تغير قناعاته تدريجياً تجاه القيم الغربية فكتب: "عندما كنا شبابًا اعتقدنا ووثقنا كلنا بالمساواة والعدالة؛ لكن مع تقدم السن، وتزايد الخبرة في الحياة؛ انتهينا إلى فقدان هذه الصورة الهادئة شيئًا فشيئًا. كيف؟ لم تكن أحلامنا سوى سراب.. فالكبرياء والأنانية هما أعداء العدالة والأمن".

غير أنه ومن خلال كمَ هائل من المقالات ناقش مسألة علاقة فرنسا بالجزائريين، والتي كان محورها: "الإسلام" بحيث لم يمانع من محاولة فهم هذا الأخير، والوقوف عند معانيه السامية، والاجتهاد في تفسير نصوصه على أن يكون الهدف – كما قال – هو العصرنة أو الحداثة، واستحضر النموذج المصري قائلا: "... لقد اهتدت مصر إلى الصيغة المثالية للمستقبل التي تسمح للمسلمين بدخول عالم الشعوب المتحضرة دون تخليهم عن معتقداتهم وتقاليدهم" (La voix indigène, no1931 ,101).

كان رابح زناتي يصر في كل مناسبة على التأكيد بضرورة إبعاد الدين عن السياسة: "إنَ المسلم الحقيقي يشاطرنا القول بأن الإسلام لا يتعارض مع عصرنة الأهالي"، وتساءل: "هل الدين الإسلامي عائق أمام تطور الأهالي المسلمين؟، وهل بإمكانهم التطور وهم مسلمون؟، وما هو دور النخبة المسلمة في هذه المهمة؛ خاصة ممن هم في اتصال دائم بالأهالي؟"(La voix des humbles, no1926 ,44).

وللإجابة عن هذه التساؤلات دعا إلى الإقتداء بالأوروبيين في فصل دينهم عن السياسة، كما هو حال المذاهب المسيحية؛ التي يهتم كل واحد منها بتنظيم الشؤون الأخلاقية والسلوكية للدين بمعزل عن أي نشاط سياسي، ويقول: "لماذا لا يكون الحال نفسه لدى المسلمين؟"؛ خاصة وأنه يذكِر في كل مرة بالاختلافات الفقهية والمذهبية التي يعرفها الواقع الإسلامي: "...لماذا لا يتخلصون منها (الاختلافات والخلافات)، ويسعون نحو عالم الحداثة لتهيئة دخول إخوانهم إليه؟"(La voix indigène, no1931 ,104).

كما عبر عن ذلك أيضا في خطابه "المبارِك" لجمعية العلماء عند تأسيسها؛ إذ كتب "– نشير إلى أن نشاطكم سلاح ذو حدين؛ إذ بإمكانكم تحقيق السعادة لإخوانكم بتبصركم العقلاني، أو أن تدفعوهم للهاوية إذا ما اعتمدتم على التزمت والطرقية". واقترح الحل انطلاقًا من "نشر ثقافة جديدة تنطلق من تعليم كلاسيكي ومعاصر في آن واحد، وأن يحدث التوازن بين العلم والأخلاق"(La voix indigène, no1931 ,104).

كان زناتي يرى أن "الإسلام قابل للتطور، وأدرج مثالا عن تركيا الحديثة، وأكد أن المسلمين لن يصلوا إلى شيء من التقدم؛ إذا لم يتمكنوا من الفصل بين السلطتين الروحية والدنيوية..، وبأن النزعة التأويلية والتوفيقية للنصوص الدينية لن توصل سوى لحالة التخلف وسط الأمم الأوروبية؛ خصوصًا مع الاعتقاد أن الشريعة قابلة للتكيف مع المتغيرات الحالية التي لا تؤثر على أصول الإسلام.."، ورأى أيضا: "إن الثورة التركية ليست جنونًا مثلما يقول البعض؛ إنما تعبر عن تبني نظرة أكثر مرونة في التعامل مع متطلبات الواقع.. إن مصطفى كمال لا يعدَ

منقذًا لبلاده فحسب؛ لكنه يطمح إلى تكوين شعب شاب ونشيط" (La voix des humbles, no1928 ,59). وتساءل أيضًا: "إذا كان يوجد في القرآن ما يحقق رغبات الشعب التركي في التحرر لتم الاعتماد عليه؟، وهذا ما سيدفع ببقية الشعوب الإسلامية إلى مجاراة حركة الأتراك التحديثية" (La voix des humbles, no1928 ,66).

2.3 الأسس العملية

انبنت مجمل الأفكار التي طرحها زناتي بشأن مشروع الاندماج على أسس ثابتة؛ لم تتغير تقريبًا مع الوقت والظروف، وعلى رأسها حق المواطنة. وأفرد جانبًا مهمًا من كتاباته لتفصيل آليات تحقيق ذلك، فكتب: "إن الهدف قبل كل شيء هو الفرنسة؛ يعني منحنا الروح الفرنسية والتفكير الغربي"(Zenati,1938).

رأى رابح زناتي في الاندماج؛ عن طريق الحصول على حقوق المواطنة؛ ملاذًا وحيدًا لبناء "الوحدة الإسلامية – الفرنسية" المأمولة، وهو في الوقت نفسه آلية تخلق مبررًا للوجود الفرنسي بالجزائر في حد ذاته. ويتوجب بالتالي على الطرفين السعي باجتهاد لتحقيق ذلك: الجزائريون لتحسين أوضاعهم، والارتقاء في حياتهم، والفرنسيون من أجل قطف النتائج المثمرة لقيَم ثورتهم، وإيصالها للشعوب. وقد كتب في هذا الخصوص يقول: «إن الجزائر يجب أن تتحول إلى فرنسية؛ ليس فقط بالمساهمة الفعالة للأهالي في الحياة الاقتصادية، وتبنَي أفضل طرق العمل؛ وإنما أيضًا بتغيير الذهنيات حتى تزول وتذوب كل الفوارق، وعندها بإمكاننا القول أنه في الجزائر يعيش فرنسيون لهم شعور وتطلع واحد" (La voix indigène, no1929 ,1).

إن الدعوة إلى الاندماج كما تصورها رابح زناتي؛ فرضتها الظروف؛ لأن الوجود الفرنسي على أرض الجزائر مثل فرصة ذهبية لإحداث التغيير. أما مجموع الخصوصيات التي تفصل الطرفين فإنها مسألة اختيارات شخصية ووقت، ولا ينبغي المبالغة فيها. وقد اعتقد بإمكانية تعايش الأهلي المسلم مع الفرنسي لاحقًا؛ واندماجه مع الحفاظ على خصوصياته بعد حصوله على المواطنة الفرنسية؛ تمامًا مثله مثل المواطن الفرنسي في أية مقاطعة فرنسية وحتى خارج المتروبول.

إلا أنه لم ينكر صعوبة تحقيق مشروع الاندماج عمليًا؛ بالنظر لمستجدات الساحة السياسية؛ التي أبانت عن النشاط الحثيث للعلماء، وللحركة العمالية التي ظهرت بوادرها في فرنسا، واتسمت بالنزعة الاستقلالية. وأيضًا لم ينسَ صعوبة مسعى إقناع الفرنسيين بالتنازل قليلاً من أجل الأهالي المسلمين. وكتب بهذا الخصوص: "على المسلمين أن يُقبلوا بكل ثقة على فرنسا، وأن يستلهموا منها العبقرية، وأن ينخرطوا بثبات في الحياة العصرية...، كما

يتوجب على الفرنسيين إظهار قليل من روح المصالحة والعدل؛ تجاه هؤلاء الأهالي المرغمين على الارتباط بهم" (La voix indigène, no1929 ,1)، وهو يعني بصورة مباشرة فئة المعمرين؛ التي كثيراً ما انتقد جشعها، وامتعض من عرقلتها لمشروع الاندماج؛ بل وحملها أحياناً مسؤولية تخلف الجزائر(Zenati, 1945).

إن المفهوم الحقيقي لحق المواطنة في رأيه كان تصورًا واسعًا ذو أبعاد عميقة، وإقراره يبدو بحاجة لمنهج بيّن، وتطبيقه عمليًا يتطلب النية "الخالصة" والمرحلية في الانجاز، والاهم – حسبه – هو ضرورة التحلي بالصبر ومواجهة العوائق المحتملة؛ مهما بلغت درجة صعوبتها. وهو في هذا الصدد يطلب بذل المزيد من الجهد، وعلى عكس رفيقه الشريف بن حبيلس مثلا؛ لا يركن للأحلام والوعود والتأمل والانتظار، حيث كتب عن ذلك: ".. لقد مرت مئة سنة كاملة ولم يلمس المسلمون بعد آثار الحضارة الأوروبية؟" (La voix indigène, no1945). وهو بلا شك يقصد التزامات فترة بداية الاحتلال، وشعار الرسالة الحضارية، وتبعاتهما من وعود السياسات الفرنسية المتعاقبة .

بذل رابح زناتي جهدًا كبيرًا في سبيل إيجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق مشروع جيله، والهادف إلى تحصيل الأهالي المسلمين لحقهم في المواطنة، وهو هنا لم يطرح للنقاش مسألة شرعية الوجود الفرنسي نفسه؛ بل إنه ربط تاريخ الجزائر الحديث بدخول الجيوش الفرنسية إليها؛ خاصة أنها في رأيه رائدة نشر الحضارة في أوروبا والعالم، ويبقى عليها في الوقت الحالي السعي لتعليم الجزائريين وتحضيرهم، وأن تتعاطى في معاملتهم كمواطنين، وليس كرعايا: وكتب عن ذلك: "يتوجب على فرنسا أن تجعل الجزائر مقاطعة فرنسية بدلاً من مستعمرة؛ بحيث يقطنها فرنسيون محبَون، لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات" (La voix indigène, no1930 ,47).

إن حقيقة مشروع المواطنة الذي تصوره؛ دفعه إلى إقصاء كل الأطراف المناوئة؛ بغية إعطاء ضمانات أكبر لتجسيد أحلامه، ولذلك خاض معركة عنيفة في مواجهته التنظيمات السياسية المنافسة؛ لاسيما فديرالية المنتخبين المنبر "الشرعي" المفترض لتمثيل

1- وكان ابن حبيلس بالمقابل قد أكد في عدة مناسبات على ضرورة انتظار نتائج الوجود الفرنسي بالجزائر، ونوه بجهود الإدارة الاستعمارية، ومما كتب: "...سوف يضمحل هذا الشعب شيئًا فشيئًا، ويذوب في صلب العائلة الفرنسية الكبيرة، وحينئذ فإن البرجوازية المهانة، والتي تلتهب غيرة وأسفًا على الفرص الضائعة؛ سوف تسرع لدخول ذلك البناء الفاخر الذي لم تساهم في تشييده، ويا ليتها تجد أبوابه موصدة مكتوب عليها: لم نعد هنا "On n'est plus ici"، وهي أمنية واحد من أفرادها الذين تنكروا لها، وهو يرجو من أعماق قلبه أن تتحقق."

الجزائريين، وجمعية العلماء المسلمين المنبر الديني الكفيل بتوجيههم نحو صالحهم. وفي رأيه أن كلا التنظيمين لم يقُم بما هو مطلوب منه على الوجه الأفضل لتحقيق مشروع المواطنة المنشودة، وكما وصف أعضاء الفديرالية بالزنوج البيض " Les nègres blancs" نظراً لتبعيتهم العمياء للإدارة؛ ووصف أعضاء الجمعية بأنهم "وهابيون مقلدون" (La voix indigène, no1937 ,423).

و دفاعاً عن مشروعه الإندماجي قاد رابح زناتي حملة ضد النشاط الإصلاحي لجمعية العلماء، لأنه اعتبرها ألد الأعداء والمنافسين. وقد تكفل بمتابعة ورصد تحركات العلماء، وربطها حتى بأطراف خارجية؛ باعتبارهم يشكلون خطراً على مشروعه؛ وخاصة بعد "انسجامهم" مع النخبة والمنتخبين؛ في تجربة المؤتمر الإسلامي الأول المنعقد سنة 1936م. والذين لم تمر سنوات قليلة على تأسيس جمعيتهم حتى "حققوا نجاحاً منقطع النظير لا يستطيع عاقل أن ينكره، كما لا يمكن التقليل من نتائج تحركهم الثوري مستقبلاً" (La voix indigène, no1937 ,422).

كما أبدى رابح زناتي عداءً واضحًا لرواد الإصلاح، وحذر من دورهم المؤثر في المستقبل؛ وكتب باستهزاء: "إن هؤلاء ليسوا مصلحين لشيء، وهم لا يقترحون شيئاً جديداً أفضل، وأن حركتهم ليست النزعة الإصلاحية؛ النزعة الوهابية الجديدة في الجزائر؛ إلا عودة للماضي. هي حركة سلفية (ماضية) ساذجة لا تختلف عن الحركات الإسلامية الجامدة، إنها مجرد إحياء لأوهام دينية قديمة أدت غالبا إما إلى التفرق أو إلى تغيير العائلات الحاكمة". (La voix indigène, no1937 ,424).

ارتأى زناتي دعم فكرة ترك فرنسا تحقق مشاريعها "الحضارية" في الجزائر، ومنحها الوقت الكافي المطلوب لتحقيق مصالح الأهالي المسلمين؛ الذين ينبغي عليهم عدم الخوض في أمور السياسة؛ باعتبار أنهم بعيدين عن الثقافة السياسية المطلوبة لذلك، ونصحهم بعدم إتباع الدعوات والنداءات الإصلاحية، ولا الشيوعية أو القومية. وأوكل بالمقابل لمجموعته مهمة الارتقاء بفكر ووعي الجزائريين؛ لفهم أبجديات الحضارة قصد تأهيلهم للمكانة المنتظرة، وإلا فسيكون مصيرهم العودة للبؤس والتخلف (La voix indigène, no1937 ,424).

ولم يرَ في غير النخبة "المتطرفة" طرفاً مناسباً لتولي مهمة تحقيق مشروعه؛ فاستبعد الشيوعيين لقصور طرحهم القائم على الطبقية والمنفعية، وقدح في الثوريين ذوي المستوى الثقافي المحدود، وانتقد الإصلاحيين العلماء لأنهم اقتحموا ميدان السياسة، ووقعوا ضحايا للقومية العربية، وأنكر على النواب تعاطفهم مع الكل (La voix indigène, no1938 ,435).

خاتمة

إن الدارس لشخصية وأفكار النخبة الجزائرية "المفرنسة" الداعية للاندماج يخلص إلى نتيجة مفادها أن نتاج المدرسة والبرامج التعليمية الفرنسية في الجزائر، وتناقضات السياسات الاستعمارية المطبقة على الجزائريين؛ أوجد فصيلاً هجينًا من حيث الأفكار والرؤى السياسية والثقافية. ورابح زناتي يعد نموذجـًا واضحـًا لمجموعة حاولت بكل الوسائل والإمكانات المتاحة أمامها إحداث التغيير، والمساهمة في تحقيق الأفضل لمجتمعهم الأهلي المسلم.

وعلى الرغم من حجم الكتابات التي خلفها زناتي عبر صفحات الجرائد المختلفة؛ إلا أننا لم نعلم باقتحامه مجال الكتابة التعليمية الهادفة للتلقين المدرسي؛ كما فعل كثير من زملائه المعلمين؛ خاصة انه استكمل مسار التدريس المطلوب منه حتى التقاعد.

ولقد آمن الزناتي بإمكانية رؤيته للجزائر "الفرنسية"؛ بتضافر الجهود من كل الأطراف المعنية: مسلمين وفرنسيين. واقتنع أن الدول الحديثة لا تستند في تطورها للدين؛ لأن منطلق الحياة المعاصرة متجدد ويسير باتجاه التنافس والصدام، وهذا ما لا يتوافق والقيم الروحية والإيمانية للدين التي تمتد في الأفاق المثالية.

ومن جهة أخرى فإن جرأته في الأسلوب، وحدته في طرح أفكاره؛ تنم عن شخصية قوية لم تعرف التحفظ أو الاعتدال في الكتابة أو الحضور، ولم يعاني أيضا مما أصطلح عليه في بعض الأدبيات بأزمة الضمير. وكانت ثقته عالية في تحقق مسعى الاندماج يوما ما بطريقة أو بأخرى. وإن فسرنا هذا الأمر بالبنية النفسية والذهنية الثابتة لديه؛ فلا يمكننا بأي حال إيجاد تبرير لتهجماته الكثيرة ونقده اللاذع لمعاصريه من رجال جمعية العلماء ولرفاقه أيضا داخل تيار النخبة، وهذا ما يتعارض حتمـًا مع أصول النشاط السياسي، ومع أدبيات الحوار والجدل المبني – على الأقل– غالبـًا على الدبلوماسية في التعامل.

المراجع

1– أبو القاسم سعد الله، 1998. تاريخ الجزائر الثقافي 1830– 1954، مجلد 3، الجزء6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة01.

2– بن حسين كريمة، 2008. "المتجنسون مواقفهم أفكارهم وطموحاتهم"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، العدد 30، المجلد01.

3– بيرفيي غي،2007. النخبة الجزائرية الفرنكوفونية 1880– 1962، ترجمة. م. حاج مسعود وآخرون، دار القصبة، الجزائر.

4– دويدة نفيسة، 2014. النخبة الجزائرية: مسار وأفكار: ملامح التكوين، النشاط والمواقف، دار ثالة، الجزائر.

5– دياكوف نيكولاي، 2009. "النخبة والعقيدة الاندماجية: دراسة تقويمية في المراجع والأدبيات"، ترجمة. عبد العزيز بوباكير، مجلة معالم، العدد 01.

6– ماكسيمنكو فلاديمير، 1984. الانتلجانسيا المغاربية: المثقفون أفكار ونزاعات، ترجمة. عبد العزيز بوباكير، دار الحكمة– النهضة، الجزائر، الطبعة01.

7– Benhabilès Chérif, 1914. L'Algérie française vue par un indigène, imprimerie Fontana, Alger.

8- Déjeux Jean, 1984. Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française, éd. Karthala, Paris.

9- Ihaddaden Zohir, 1983. Histoire de la presse indigène en Algérie, éd. ENAL, Alger.

10- Letourneau Roger, 1962. Evolution politique de l'Afrique du nord musulmane 1920- 1960, Paris, éd. A. Colin.

11-Zenati Rabah, 1938. Le problème algérien vu par un indigène, Renseignements coloniaux, Supplément de L'Afrique française.

12- Zenati et Akli, 1945. Bou el anouar, le jeune algérien, éd. Maison du livre, Alger.

13- Zaouali, 1930. "La question du mois : la justice", La voix des humbles, no 83, Constantine, p 2- 4.

14- Zenati Rabeh, 1926. "Notre attitude", La voix des humbles, no 44, Constantine.

15- Zenati Rabeh, 1928. "Notre ambition", La voix des humbles, no 58, Constantine.

16- Zenati Rabeh, 1928. "La révolution turque", La voix des humbles, no 59, Constantine.

17- Zenati Rabeh, 1928. "La révolution turque et la femme musulmane", La voix des humbles, no 66, Constantine.

18- Zenati Rabeh, 1929. "Notre programme", La voix indigène, no 1, Constantine.

19- Zenati Rabeh, 1930. "La naturalisation et francisation", La voix indigène, no 27, Constantine.

20- Zenati Rabeh, 1931. "Les naturalises et la légion d'honneur", La voix indigène, no 86, Constantine.

21- Zenati Rabeh, 1931. “Association des oulémas”, La voix indigène, no 101, Constantine.

22- Zenati Rabeh, 1931. “Aux savants musulmans”, La voix indigène, no 104, Constantine.

23- Zenati Rabeh, 1931. “La naturalisation”, La voix indigène, no 106, Constantine.

24- Zenati Rabeh, 1931. “Les français musulmans au Maroc”, La voix indigène, no 102, Constantine.

25- Zenati Rabeh, 1937. “Le reforme algerien1”, La voix indigène, no 422, Constantine.

26 Zenati Rabeh, 1937. “Le reforme algerien2”, La voix indigène, no 423, Constantine.

27- Zenati Rabeh, 1937. “Le reforme algerien3”, La voix indigène, no 424, Constantine.

28- Zenati Rabeh, 1938. “Les amies de la France”, La voix indigène, no 432, Constantine.